تفسير
سورة القيامة

تفسير سورة القيامة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لا أقسم بيوم القيمة ۞ ولا أقسم بالنفس اللوامة ۞ أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه ۞ بلى قادرين على أن نسوي بنانه ۞ بل يريد الإنسان ليفجر أمامه ۞ يسئل أيان يوم القيمة ۞ فإذا برق البصر ۞ وخسف القمر ۞ وجمع الشمس والقمر ۞ يقول الإنسان يومئذ أين المفر ۞ كلاّ لا وزر ۞ إلى ربك يومئذ المستقر ۞ ينبؤا الإنسان يومئذ بما قدم و أخر ۞ بل الإنسان على نفسه بصيرة ۞ ولو ألقى معاذيره ۞ لا تحرك به لسانك لتعجل به ۞ إن علينا جمعه وقرآنه ۞ فاذا قرأنه فاتبع قرآنه ۞ ثم إن علينا بيانه ۞ كلا بل تحبون العاجلة ۞ وتذرون الآخرة ۞ وجوه يومئذ ناضرة ۞ إلى ربها ناظرة ۞ ووجوه يومئذ باسرة ۞ تظن أن يفعل بها فاقرة ۞ كلا إذا بلغت التراقي ۞ وقيل من راق ۞ وظن أنه الفراق ۞ والتفت الساق بالساق ۞ إلى ربك يومئذ المساق ۞ فلا صدق ولا صلى ۞ ولكن كذب وتولى ۞ ثم ذهب إلى أهله يتمطى ۞ أولى لك فأولى ۞ ثم أولى لك فأولى ۞ أيحسب الإنسان أن يترك سدى ۞ ألم يك نطفة من مني يمنى ۞ ثم كان علقة فخلق فسوى ۞ فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ۞ أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى﴾.

(١)
بيان عمود السورة وربطها بالتي قبلها

اعلم أن عمود هذه السورة إبطال ظن المنكرين بالقيامة والجزاء.

وكان منشأ إنكارهم حب هذه العاجلة الفانية. فإن حب الشئ يبعد عن استماع ذكر خلافه. ثم استكبارهم عن الطاعة وتقوى الله لما غرهم أهلهم ومالهم، كما ذكر الله تعالى هذين الأمرين بقوله: ﴿كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة﴾ [سورة القيامة/٢٠-٢١]، وبقوله: ﴿فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى ثم ذهب إلى أهله يتمطى﴾ [سورة القيامة/٣١-٣٣]، وهذا تصوير من استغنى بأهله وماله. وتشبثوا في إنكارهم بشبهة عامة ذكرها القرآن بحكاية أقوالهم مرارا مثلا: ﴿أ إذا كنا عظاما نخرة﴾ [سورة النازعات/١١]، أو: ﴿هيهات هيهات لما توعدون﴾ [سورة المؤمنون/٣٦]، فأجابهم الله حسب حالهم بما يزيل عنهم الشبهة ويوقظهم عن الغفلة. فجمع في السورة من الزواجر والدلائل ما فيه بلاغ مبين.

ولما كانت السورة السابقة قد صرحت بحالهم من الاستكبار والإنكار وذكرتهم بتهويل شديد، قلل في هذه السورة من ذلك التصريح وخاطبهم بالدلائل. فكما أن الصناع ينفخ في الحديد أولا فيجعله ناراً ثم يطرق عليه، فهكذا ربما يفعل بالكلام إذا صادف قوما خصيما مستكبرا. فهذه السورة مع لوافح الغضب في أسلوبها ليست بصراحة السورة السابقة كقوله تعالى فيها: ﴿ذرني و من خلقت وحيدا. وجعلت له مالا ممدوداً. وبنين شهودا. ومهدت له تمهيداً. ثم يطمع أن أزيد. كلا إنه كان لآياتنا عنيداً. سأرهقه صعوداً. إنه فكر وقدر. فقتل كيف قدر. ثم قتل كيف قدر. ثم نظر. ثم عبس وبسر. ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر. سأصليه سقر. وما أدراك ما سقر. لا تبقي ولا تذر﴾ إلى قوله تعالى ﴿فما لهم عن التذكرة معرضين. كأنهم حمر مستنفرة. فرت من قسورة﴾ [سورة المدثر/١١-٥١]، فترى فرقا واضحاً بين هذا التصريح وما تجد في سورة نحن فيها الآن.

(٢)

بيان أسلوب الكلام في هذه السورة

ومع ذلك تجد في أسلوب السورة بقايا الغضب، لما ترى فيها من ذكر عتو الإنسان واجترائه، ولما ترى فيها من التقريع والتخضيع في جوابها وخطابها، ولما ترى كثرة الردع والاستفهام في آياتها. فالسورة من جهة الأسلوب غير منقطعة بل متصلة بالسابقة كما بيناه في الفصل الأول. ألا ترى قول الإنسان: ﴿أيان يوم القيامة﴾ [سورة القيامة/٦] على غاية العتو والاجتراء. فإنه بعد إتمام الحجة لا يستطيع الإنكار بها، ولكن لمحض غيابها ولما أمهله الله رحمة يقول مستهزءاً مستكبراً مستعجلا أيان ذلك اليوم ؟ فاستحق التقريع والتخضيع في الجواب. فما أخبر عن وقتها ولكنه صور له حاله في ذلك اليوم.

وعلى هذا الأسلوب ما جاء مراراً في القرآن، فمنه قوله تعالى: ﴿يسئلون أيان يوم الدين ۞ يوم هم على النار يفتنون ۞ ذوقوا فتنتكم هذا الذي كنتم به تستعجلون﴾ [سورة الذاريات/١٢-١٤]، فهكذا قوله تعالى: ﴿فإذا برق البصر وخسف القمر وجمع الشمس والقمر يقول الإنسان يومئذ أين المفر﴾ [سورة القيامة/٧-١٠] جواب يليق بإنكارهم. أي إنه اليوم مستبعد، مستعجل، مستكبر ويقول أيان يوم القيامة ؟ ولكنه حين رأى ذلك اليوم يقول أين المفر؟

ومثل ذلك تصوير حاله في قوله تعالى: ﴿و وجوه يومئذ باسرة. تظن أن يفعل بها فاقرة﴾ إلى قوله تعالى: ﴿والتفت الساق بالساق﴾ [سورة القيامة/٢٤-٢٩]. ومثل سواله استكباراً إعراضه عن الحق، كما قال تعالى: ﴿فلا صدق ولا صلى. ولكن كذب وتولى. ثم ذهب إلى أهله يتمطى﴾ [سورة القيامة/٣١-٣٣]. فأتبع هذا قوله: ﴿أولى لك فأولى. ثم أولى لك فأولى﴾ [سورة القيامة/٣٤-٣٥]. مطابقاً لحاله على سبيل

الحسرة، كما قال تعالى: ﴿يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤن﴾ [سورة يس/٣٠]. فإن كلمة "أولى" تستعمل للحسرة كما أن "ويلا" للمقت والزجر. قالت الخنساء:

همت بنفسي كل الهموم   فأولى لنفسي أولى لها ٩٩

وإنما التفت من الغيبة إلى الخطاب لتكون أشد. فلو قال: "أولى له فأولى" لم يبلغ هذا المبلغ. وإنما أجرى الكلام إلى آخر السورة على الاستفهام لمثل ذلك السبب، فالسورة من أولها إلى آخرها ردع وتوبيخ.

(٣)

الكلام جار على معنى متصل

وإنما أكثر القطع الظاهر والالتفات للدلالة على السخط

لا نرى الحاجة إلى تفصيل مواقع الردع والاستفهام في هذه السورة،، ولكن نشير إلى أمر مهم، وذلك: أن الخطاب إذا كان على سبيل السخط نرى فيه كثرة الفصل، كأن المتكلم يقف عن القول ويكظم غيظه، ثم يأخذ في أسلوب آخر ويختم الكلام بكلمة الردع، كما ترى الالتفات كثيرا في كلامهم بمثل قول الشاعر: ١٠٠

فدع ذا، وسل الهم عنك بجسرة ١٠١

ولك أن تقايس هذه السورة بسور العلق، والتكاثر، والهمزة، فإنهن

---

٩٩ ديوان الخنساء: ١٢١ .

١٠٠ وهو امرؤ القيس .

١٠١ ديوانه: ٦٣ عجز البيت:

ذمول إذا صام النهار وهجرا

متشابهات في هذا الأسلوب كتشابههن في إظهار السخط. ولكي تفهم هذا الأسلوب ومواقع الردع والسؤال، نوردها عليك بطريق موجز:

"أيحسب الإنسان أن لا نشر ولا جزاء، بل من الفجور يقول أيان ذلك ؟ فإذا جاء لا مفر. كلا لا ملجأ له، وإلى الله المستقر. بل الإنسان مع البصيرة يتعامى. كلا بل يحب الدنيا ويترك الآخرة. كلا ما غناء الدنيا عنه إذا بلغت التراقي وسيق إلى ربه".

فترى كثرة الالتفات والقطع الظاهر، ولكن الكلام جار على معنى متصل، وما ذلك إلا لإظهار السخط وشناعة أحوالهم.

ومن الالتفات آية: ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به﴾ إلى كلمة ﴿علينا بيانه﴾ وسنرد على تفسيرها.

(٤)

بيان وجه الاحتجاج في هذه السورة

قد علمت مما قدمناه أن السورة بنيت على الزجر والتخضيع، ولذلك يخفى وجه الاحتجاج على غير الممارس ببلاغة العرب، فإنه ينظر في الكلام من جهة الإخبار والاستدلال. فأردنا أن نكشف عن وجه الحجة بتجريد الكلام عن بوارقه، فتحتمله الأبصار الضعيفة أيضا.

فنقول إن وجه الكلام تحت قناع البلاغة هكذا:

"كذب الإنسان بالقيامة وتولى عن الذكر، وحسب أنه يترك سدى ولا يجزى، وقد أنذر بها، فيسأل مستهزءاً أيان يوم القيامة ؟ فليعلم انه لن يترك سدى بل إنه يحيي ثم يجزى. نجمع عظامه ونسوى بنانه. وإنما هو في سكرة العمى، فيفتح بصره عند الواقعة، فيقر بها إذا شهدته بنفسها، بل قد شهدت نفسه اللوامة. فهو بصيرة على نفسه، ولكن محبة هذه العاجلة أذهلته عن الآخرة،

فينبغي أن يترك مليا كي يفهم. ألا يذكر الموت وفراق هذه العاجلة الذاهبة والرجوع إلى ربه ؟ فيصدق ويصلى. أم لا يذكر خلقته؟ فيؤمن بأن المبدع قادر على إحيائه مرة أخرى".

ولكن أين هذا من النظم البليغ الباهر!

والذي يتدبر القرآن يرى تحت قوارعه حججه الدامغة، كما قال تعالى: ﴿تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾ [سورة الزمر/٢٣]، وسينكشف لك وجه الحجة بعد النظر في مجموعها وفهم تأويلها.

والآن نلتفت إلى أجزاء السورة وشرح كلماتها بحول الله تعالى. وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب.

(٥)

تفسير قوله تعالى: (لا أقسم)

في قوله تعالى: ﴿لا أقسم﴾ لا منفصلة، أي باطل ما يحسب الإنسان. والقول بزيادة "لا" سخيف جدا، وبأنها متصلة سقيم لضعف المعنى ولتصريح القرآن بخلافه حيث جاء: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾ [سورة الواقعة/٧٥-٧٦]. انظر تفسير هذه الآية.

وانفصال "لا" قبل القسم كانفصال "كلا" قبله، كما قال تعالى: ﴿كلا و القمر﴾ [سورة المدثر/٣٢]، وتكرارها كتكرارها، كما قال: ﴿كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون﴾ [سورة التكاثر/٣-٤]. وهذا الأسلوب شائع في كلامهم إذا أرادوا شدة الإنكار لظن سابق، لأن في تقديم "لا" دلالة على أن الكلام جواب ورد لما قيل من قبل، وعلى أن الإنكار به لا يحتمل مكثا. فإن القسم عادته الابتداء، وإنما قدمت عليه

كلمة الإنكار لشدة الاعتناء به، والقسم على الأكثر تأكيداً للإثبات، فإذا كان الإنكار، ينبغي أن يصدر الكلام بالنفي. ولذلك قالوا: لا والله. وإن قيل: والله لا، كان ضعيفا. فعلى هذا جاء قوله تعالى: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك في ما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت﴾ [سورة النساء/٦٥]. ومنه قول النابغة الذبياني:

فلا لعمر الذي مسحت كعبته   وما هريق على الأنصاب من جسد
والمؤمن العائذات الطير تمسحها   ركبان مكة بين الغيل و السعد
ما قلت من سيئ مما أتيت به   إذاً فلا رفعت سوطي إليّ يدي [١٠٢]

وأيضا قوله:

فلا عمر الذي أثنى عليه   و ما رفع الحجيج إلى إلال
لما أغفلت شكرك فانتصحني   وكيف ومن عطائك جل مالي [١٠٣]

وقول امرئ القيس:

لا و أبيك ابنة العامر   ي لا يدّعي القوم أني أفرّ [١٠٤]

وفي هذه الشواهد من القرآن وكلام العرب كان القسم على الإنكار المحض، فجيء بذكر ما يتعلق به الإنكار.

وأما إذا كان القسم على إثبات وإنكار معا كما وقع ههنا أتبع كلاما يناسب هذا الموقع.

فربما يذكر في الجواب الإثبات والإنكار معا، كما قال تعالى:

---

١٠٢ ديوانه: ٢٥ .

١٠٣ المصدر السابق: ١٥١ إلال: جبل بمكة .

١٠٤ ديوانه: ١٥٤ .

﴿فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون إنه لقول رسول كريم (هذا ذكر الإثبات) وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون (هذا ذكر الإنكار) تنزيل من رب العالمين﴾ [سورة الحاقة/٣٨-٤٣] أعاد الإثبات كما ثنى الإنكار.

وربما يحذف كلاهما ويؤتى بما يدل على المقسم عليه أو يعتمد على ظهوره من موقع الكلام، كما ترى في قوله تعالى: ﴿ص والقرآن ذي الذكر بل الذين كفروا في عزة وشقاق﴾ [سورة ص/١-٢]، فكذلك ههنا أيضا لم يصرح كل تصريح بالمقسم عليه، لما دل عليه ما يتلوه، ولما يفهم من نفس المقسم به، ولما يفهم من الردع والتوبيخ، كما مر بك ذكره في الفصل الرابع، ولما مهد له في السورة السابقة كما بيناه في الفصل الأول.

(٦)

معنى معاذير وفاقرة

أما باقي ألفاظ السورة فمعروف، ولكن ربما يسأل عن كلمتين: معاذير وفاقرة. أما المعاذير: فاسم جمع للمعذرة، وأصلها معاذر. في أمثالهم: المعاذر مكاذب. ثم زيدت الياء كما ترى في المناكير. وهذا المعنى أقرب إلى ظاهر الموقع مما قالوا إنه جمع معذار للستر بلغة اليمن. ويتضح لك هذا من تفسير الآية.

أما الفاقرة: فهي من أسماء الداهية، كأنها تكسر فقرات الظهر، وهكذا القارعة. وأسماء الداهية تستعمل للقيامة.

(٧)

بيان المقسم عليه ووجه القسم بالقيامة

القسم بالقيامة من التأنيب الشديد كأنه قال: سوف تعلمون ذلك

اليوم. فأخرج الكلام مخرج التهويل. ومثل ذلك في قوله تعالى: ﴿و اليوم الموعود﴾ [سورة البروج/٢]. ويدلك على موقع سخطه قوله تعالى بعده: ﴿قتل أصحاب الأخدود﴾ [سورة البروج/٤]. وهذا الأسلوب أبلغ في خطاب المستعجلين، كما قال: ﴿إذا وقعت الواقعة. ليس لوقعتها كاذبة﴾ [سورة الواقعة/١-٢].

فهذه الأقسام من إشهاد الشئ بنفسه على نفسه لشدة الظهور، فإن القسم من الله تعالى بآياته الدالة يراد به الإشهاد والاستدلال، كما بينا في كتاب ''الإمعان في أقسام القرآن''.

ثم هذا الأسلوب أنفع لهم لكي يتعلموا الصبر ويغتنموا المهلة. ولذلك كثر في القرآن الأمر بإمهالهم والإعراض عنهم. فإن أمراض النفس كأدواء الجسم تعالج بأضدادها، كما ترى في قوله تعالى: ﴿سأل سائل بعذاب واقع. للكافرين ليس له دافع. من الله ذي المعارج. تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، فاصبر صبرا جميلا. إنهم يرونه بعيداً ونراه قريبا.﴾ [سورة المعارج/١-٧]. فلم يجب للسائل، بل أمر النبي بالصبر.

وربما يتبع التهويل حجة، كما ترى في قوله تعالى: ﴿عم يتساءلون ۞ عن النبأ العظيم ۞ الذي هم فيه مختلفون ۞ كلا سيعلمون ثم كلا سيعلمون ۞ (فهذا تهويل وزجر وتنبيه، ثم أتبع ذلك حجة فقال) ألم نجعل الأرض مهادا﴾ إلى قوله ﴿ألفافا﴾ [سورة النبأ/١-١٦] احتجاجا بآياته الدالة على القيامة. فكذلك في هذه السورة بعد القسم بالقيامة على سبيل التهويل، أشهد بدليل هو من أقرب الأدلة. ولنذكره الآن.

(٨)

بيان وجه القسم بالنفس اللوامة

فاعلم أن القسم بالنفس اللوامة. إشهاد على النفس بصفتها التي

فطرت عليها. فإن النفس تحس بأنها تحت ذمة وعليها حاكم يحاسبها. وإلا لماذا تلوم نفسها على بعض ما فعلت. وفي ذلك دلالة ظاهرة على الحساب والجزاء، لما أن فيها من فطرتها وازعا ورادعا لا يزال ينصحها وينهرها حتى تصير مطمئنة ومنقادة، فتدخل في حزب الله راضية مرضية. فمع هذا الحس البديهي الذي سماه الله تعالى بصيرة بقوله: ﴿بل الإنسان على نفسه بصيرة﴾ [سورة القيامة/١٤] كيف يشك في يوم الجزاء إلا أنه ينكر بأن الله قادر على إحيائه. وهذا إثم كبير مع أنه حمق شديد. وذلك الظن السيئ الباطل حمله على إثم أكبر منه وهو فجوره وسوء أدبه بين يدي خالقه، فيسأل عنه ويستهزئ به، ويبدي ما استكن في نفسه من مرض الشك.

(٩)

وجه الجمع بين القيامة والنفس اللوامة

إن في الجمع بين القيامة والنفس اللوامة أيضا دلالة على نسبة بينهما عند من يتدبر. فاعلم أن القيامة لوامة النفس الكلية، فإن العالم شخص واحد لمجارى أحواله على موافقة بعضها ببعض. وكما أن في كل إنسان لوامة على أفعاله السابقة، فكذلك للعالم نفس لوامة على ما جرى فيه، كأن فيه قوة إصلاحه، ولو لا ذلك لفسد. ولذلك ترى الكون بعد الفساد، والرجوع بعد الحيادة عن السبيل. فكم مرة كادت الأجرام تتصادم أو تخرج عن النظام، ثم كأن صارفا أعادها على الصراط. وهذا بحث طويل الذيل. وأهل العلم لا يرتابون في أن في العالم مصلحاً ومرمماً، وفي توالى الليل والنهار، والحر بعد القر والمطر بعد القحط آيات على ذلك. وهكذا في جهة الأخلاق بر وفجور، و قسط وجور، وعلم وجهالة، وعمارة وخراب. وستجد بعض البسط في تفسير سورة الأعلى.

وجملة القول ههنا أن القيامة لوامة النفس الكلية فتريها ما فعلت، وقوله تعالى: ﴿ينبؤ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر﴾ [سورة القيامة/١٣] عبارة عنه، كما أن اللوامة مثال قيامة فيك فتريك حقيقة أعمالك وقوله تعالى: ﴿بل الإنسان على نفسه بصيرة﴾ [سورة القيامة/١٤] عبارة عنه. وهكذا كل نبي نفس لوامة لقومه. وخاتم الأنبياء لسعة بعثته هو النفس اللوامة لجميع بني آدم، وهو مثل القيامة وديونة العالم.

(١٠)

جمع القسمين وقع حسب ربط ما بعدهما

وكما جمع في الإشهاد بين القيامة والنفس اللوامة، فكذلك جمع في ما بعدهما بين صفة القيامة أي وقائعها وصفة النفس اللوامة أي البصيرة. وأكد على ثبوت البصيرة بأن الإنسان مع تشبثه بالمعاذير وتسكينه اللوامة بها لا يستطيع أن يسكتها. فإنها لا تزال تلومه إلا أن تصير عمياء صماء بما ران على قلبه، وحينئذ يصدق عليه: ﴿ختم الله على قلوبهم﴾ [سورة البقرة/٧]، وعن هذه الجماعة الصم العمى أمر الله النبي بالصفح والإعراض، كما قال: ﴿فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم﴾ [سورة النجم/٢٩-٣٠]. فههنا أيضاً أمره بالإعراض عنهم كما ستعلم في تفسير قوله تعالى: ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به﴾ [سورة القيامة/١٦].

(١١)

بيان خسف القمر وجمع الشمس والقمر

قد مربك بعض تفسير قوله تعالى: ﴿فإذا برق البصر﴾ إلى قوله تعالى ﴿ولو ألقى معاذيره﴾ [سورة القيامة/٧-١٥]. وقد بينا وجه الكلام

في الفصل الثالث، فالآن نتوجه إلى مضمون هذه الكلمات.

فاعلم أن الله تعالى صور بهذه الآيات هيأة القيامة حين تتجلى لهم فيبرق بصرهم، وشدة الفزع توقظهم عن رقدة الغفلات. أما كيف يخسف القمر أم كيف يجمع بالشمس ؟ فاعلم أن أمور القيامة ليست من الأحوال الجارية فتطابق بينهما إلا على سبيل العبرة. فإن الخوض فيها لا يزيد شيئاً في التخويف الذي هو المطلوب الأهم من ذكرها. بل خفاء الكيفية أعظم تهويلا من بعض الوجوه لمن أيقن بها.

وأما المنكرون الشاكون فيكفى لنا في جوابهم أن نقرب أحوالها إلى فهمهم بما علموا من مجارى الفطرة غير مقرين بأنها هي، بل إنها غير مستبعدة عما صح عندهم. فيقال لهم: إنكم لا تشكون في أن حرارة الأجسام تنقص آنا فآنا إذا كان ما حولها أبرد منها. وكذلك زعمتم أن الأجسام تدرجت من الحرارة الشديدة والهوائية إلى السيلان ثم البرودة والجمود، وقد حققتم أن كثيراً من الأجرام انجذب إلى الشمس وألقى فيها، فإن صح عندكم هذه الأمور فيوشك أن ينجذب القمر وكذلك أرضنا إليها. والشمس يومئذ قليلة الحرارة فتدنو والإنسان حي، ويبرق البصر بنورها. ويخسف القمر أولا بذهاب نوره لقرب الأرض من الشمس، كما روى عن قتادة عن الحسن: "خسف القمر، ذهب نوره"[١٠٥] ثم يقع فيها. وهو المعنى الأصلي للخسف كما جاء غير مرة في القرآن، مثلا في قصة قارون: ﴿فخسفنا به وبداره الأرض﴾ [سورة القصص/٨١]، وذلك لخروجه عن مداره.

---

١٠٥ جامع البيان في تفسير القرآن ٢٩: ١١٣. ونصه فيه: "وخسف القمر هو ضوءه يقول ذهب ضوءه".

وهذا يقع عند اقتراب الساعة. فإنه الآن كما ترى صنع الله تعالى أتقن كل شئ، فتجرى الأجرام في أفلاكها حتى يتم أمرها وتكمل مصالحها، كما قال تعالى: ﴿وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ۞ والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ۞ والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ۞ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون﴾ [سورة يس/٣٧-٤٠]، أي لنا آية علي انتهاء هذا النظام في ذهاب النهار وجريان الشمس حسب مستقرها من الله تعالى وتقديره، وكذلك في تقلب القمر الذي ينمو ثم يهزل. ومع تقاربهما بعد التباعد لا تقدر الشمس أن تدرك القمر، ولا الأرض أن تفر من الشمس، فلا يدرك نهار الشمس ليل الأرض، بل كل من الأجرام يسبحون في مدارهم. ففي ذلك آية لمن علم بتصرف الله في خلقه على فناء العالم وأن إلى الله الرجعى.

فإذا رمى بالقمر في الشمس وخسف به وقد رأوا دنو الشمس، خافوا أن تلقى هذه الأرض فيها وفزعوا ولا مفزع، فقالوا أين المفر ؟

هذا، والآن نرجع إلى شرح ما بعد هذه الآيات بحوله تعالى.

(١٢)

تفسير قوله تعالى

﴿بل الإنسان على نفسه بصيرة﴾

الإنسان على نفسه بصيرة (مبالغة ذو بصيرة)، وإذا كان الأمر هكذا فالأولى أن يحث وينبه ثم يمهل، لكي يعمل فكره بعد ما سكن إنكاره ونفرته، ولذلك يا أيها النبي لا تلق عليه تمام القرآن جملة، فإن جديد الكلام أشد تأثيرا، وفي تنزيل القرآن جملة لا يمكنك إلا تكرار كلام واحد. ثم في

مكث التنزيل مصالح أخر كما بينه. وهذا التفات إلى النبي. ثم ههنا التفات إلى الإنسان فقيل له: مع أنك بصيرة عليك إنما تنكر بالحق لكونك مشغولا بالعاجلة وتاركا نظرك في العاقبة. ولما كان ذلك من جهة غفلة الإنسان ورغبته في العاجلة المشهودة، نبهه عن الغفلة بتصوير الآخرة يوم تبيض وجوه وتسود وجوه.

وههنا جمع الترغيب والترهيب، وأما في ما سبق من التصوير فلم يذكر إلا ما فيه الترهيب. وذلك لما صدر الكلام بذكر إنكاره، فلما فرغ منه ذكر حالة الإنسان وسكن سورة الكلام قليلا. ثم ههنا رجوع إلى حالة الدنيا فذكر تصوير الموت، ثم رجع إلى ذكر حبه العاجلة واستغنائه بما أنعم به عليه. وكذلك رجع إلى ما بدأ به السورة من الإنكار والجواب. ولكن ههنا ذكر الحجة، وذلك بكونه مخلوقا مربوبا فلا يترك سدى.

ولما كان في الأول ذكر إنكاره واستهزائه لم يجب إلا بما يليق به. وأما في آخر السورة فكان قد تقدم ذكر شغله وسبب غفلته، نبهه على الدليل وجعله مقابلا لحاله.

(١٣)

تفسير قوله تعالى

﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به﴾

اعلم أن في أول النبوة كان نزول الوحي موجزاً ونزراً لقلة استعدادهم ولتنفرهم، ومن الحكمة الرفق والتلطف، فكانوا يمهلون ويصفح عنهم ريثما يهدأ جماحهم ويسكن جأشهم. والنبي عليه السلام ربما يضيق صدره إذا فتر الوحي لهجوم المخاصمة عليه، وكان نزول القرآن له تسكينا وتثبيتا، فكان حاله بين الخصام والقرآن كحال الشجر الممطور في حر

الهواجر ولفح الحرور. وزد على ذلك حرصه الشديد على إيمان الناس وتكميل الشريعة وقد قالوا: ﴿لو لا أنزل عليه القرآن جملة واحدة﴾ [سورة الفرقان/٣٢]. فلهذه الوجوه التي أشرنا إليها كان النبي عليه السلام يتشوق عند ما يوحى إليه، حتى أنه كان يقرؤه بلسانه لكي يعيه ولا ينسى، فيتلقى وراء ذلك ليكون به أشد يدا وأكثر مددا في إبطال الباطل وإثبات الحق.

وقد أظهر الله تعالى عليه مصالح المهلة والتدريج في الأمور الإلهية في كثير من الآيات، كما قال: ﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل رب زدني علما ۝ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما﴾ [سورة طه/١١٤-١١٥]، فبين في هذا أن الإنسان قليل العزم فلا يحتمل جملة الشريعة إذا حملها دفعة واحدة. فلا تعجل بأن يقضى إليك القرآن بتمامه، بل خذ ما أعطيت منها واعلم أن لها بقية من تخفيف أو تكميل، واستزد علما من ربك. فبين مصلحة التدرج مجملا من جهة ضعف الإنسان.

وأما قوله: ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه و قرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه، ثم إن علينا بيانه كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة﴾ [سورة القيامة/١٦-٢١]، فقد بين فيه مصلحة التدرج من جهة استعداد الإنسان للتربية. فإن الله تعالى أودعه بصيرة وتمييزا وشوقا إلى العلو فيسمو إليه حالا فحالا، ولكن تنازعه زخارف الدنيا وشهواته العاجلة. وهذا حب العاجل أيضا مودع فيه، كما قال تعالى: ﴿خلق الإنسان من عجل﴾ [سورة الأنبياء/٣٧]، وقال تعالى: ﴿إن الإنسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا إلا المصلين﴾ [سورة المعارج/١٩-٢٢]. وهذا لكي يبتليه ويخلص النضار من الخبث. ففي الإنسان حب العاجل وشوق المعالي كلاهما مفطور، وبذلك اجتهاده ومنه

التربية، لينمو بذر الفطرة بقوته المودعة فيه. ولذلك نهى عن الإكراه في الدين.

فبعد ما بين الله تعالى أن في الإنسان لوامة وعلما للدين وبصيرة، علم النبي كيف يربيهم فقال: لا ينبغي لك أن تعجل بالقرآن، فإن التدرج أمر مقضي عندنا وعليه يجرى أمر التربية، والمربى الحق هو الله تعالى، كما قال: ﴿إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء﴾ [سورة القصص/٥٦]. ومثلها آيات كثيرة. فعليك أن تتلو عليهم ما يوحى إليك. وسلى النبي ﷺ بأن علينا جمع القرآن بعد هذا النزول المتفرق، ثم علينا قرآنه حسب نظامه، ثم علينا بيانه بإضافة الآيات المبينة.

ثم بين أن عدم انتفاعهم بهذا القرآن ليس من جهة مكثه وتدريجه بل إنه لهو التدبير. ولكنهم يحبون العاجلة ويذرون الآخرة، فهم عبيد المحسوسات و عمون عن الغيب. فإن الإنسان على نفسه بصيرة ولكنه يتعامى و يتغافل كفرا. فإن الله تعالى هداه السبيل ونصب له الدليل. فكأنه قيل: لا تعجل بأن تلقى عليهم النصائح جملة، بل تذكرهم وتصفح عنهم فينتفع به من صلح له، ولا تحرص على تلقي القرآن جملة مجموعا مرتبا كما يطلبون منك، فإن ذلك أقل نفعا من التدريج والإمهال.

ويقرب من هذا ما بين الله من حالهم حيث قال: ﴿فما لهم عن التذكرة معرضين كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفا منشرة (فأجاب الله بقوله) كلا بل لا يخافون الآخرة كلا إنه تذكرة فمن شاء ذكره﴾ [سورة المدثر/٤٩-٥٥]. فأوضح أن داءهم الذهول عن الآخرة. ويشبه ذلك أيضا ما جاء في سورة الأعلى: ﴿سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله إنه يعلم الجهر وما يخفى ونيسرك لليسرى- (أي نيسرك للتدبير الصحيح فلا تقع في معضلة، كما قال تعالى: ﴿ما أنزلنا عليك

القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى﴾ [سورة طه/٢-٣]- فذكر إن نفعت الذكرى سيذكر من يخشى ويتجنبها الأشقى الذي يصلى النار الكبرى ثم لا يموت فيها ولا يحيى قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى﴾ [سورة الأعلى/٦-١٧].

انظر إلى الالتفات ههنا فإنه كالالتفات في قوله تعالى: ﴿كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة﴾ [سورة القيامة/٢٠-٢١]. ويشبهه أيضا ما جاء في سورة الدهر، فأشهد الإنسان على نفسه بما يعلم بالبداهة من أنه لم يكن ثم جعله الرب سميعا وبصيرا وأراه سبيل الخير والشر وجعله مختارا، فصار إما شاكرا وإما كفورا. ثم صور حال كلا الفريقين فأوجز في ذكر الكفور وأطنب في ذكر الشكور، ثم التفت إليه فقال: ﴿إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا﴾ [سورة الدهر/٢٢]. ثم التفت إلى النبي فقال: ﴿إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا، إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا﴾ [سورة الدهر/٢٣-٢٧] أي إنك لست في شئ من الذمة، إنا نحن نزلنا عليك القرآن نجما نجما ولربك الحكم فاصبر له، ولا تلتفت إلى ما يطلب منك ذلك الكفور من أن تأتى بالقرآن جملة، أو تنزل عليهم ملكا، أو صحفا من السماء منشرة وغير ذلك، فاصبر وانتظر تدبير الله. فأمره بالصفح والرجوع إلى الصلاة كما جاء كثيرا، ثم بين أن مرضهم محبة هذه العاجلة والإعراض عن الآخرة. ثم صرح بأنك برئ الذمة، فقال: ﴿إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا﴾ [سورة الدهر/٢٩]. فلا يخفى أن نظم المعاني في هذه الآيات يشبه نظم المعاني في ما نحن في تفسيره.

(١٤)

زيادة التوضيح لنظم الكلام

قد أشكل هذا الالتفات على المفسرين لما خفي عليهم رباط الكلام، حتى أن القفال رحمه الله زعم أنه مما يقال للكفار يوم القيامة[١٠٦]. والباقون لم يعدوا عن بعض فحواه. ولكنهم جعلوه كلاما مستأنفا غير مربوط بمضمون السورة، وظنوا أن النبي اعتراه العجل فكلمه جبريل ناهيا عن العجل. نعم إن نزول القرآن كنـزول الغيث ينتظر تهيؤا وانبعاثا لكي يطابق بالحال. وقد وقع عند إلقاء هذا الكلام أن النبي كان عاجلا لتلقى الوحي حرصـا عليـه لشدة حرصه على إنذار قومه كما قد ذكرته في أول فصل (١٣) ولكن كان هذا دأبه وكثر في القرآن تسليته بأمثال هذه الكلمات.

ولما كان هذا الشوق لوجوه كثيرة جاءت التسلية على وجوه كما ذكرته آنفا. وظنوا أن العجلة المذكورة في هذه السورة كانت من خوفـه الضياع والنقصان على القرآن. فنقول نعم هكذا الأمر ولكن فيه غـورا يستدعى تفصيلا.

فاعلم أن النبي ﷺ بعد ما أوحي إليه كان يحسب أن حملا باهضا قد ألقي عليه، فإن نسي منه شيئا كان مسئولا عنه. ومع ذلك إنه كـان يشتاق إلى زيادة الوحي لعل قومه ينتفع به، فجاءت التسلية حسب هذين الأمرين مع رعاية وجه الكلام في هذه السورة. فكأنه قيل له: لم تجتهـد هكذا في تلقى الوحي ؟ أما حفظه وجمعه فعلينا، وأما هداية قومك فهـم منهمكون في محبة العاجلة، فكثير القول و قليله سواء عليهم. وقد أراهـم الحق بما جعل في نفوسهم من البصيرة.

---

١٠٦ تفسير الرازى ص ٢٢٣/٣٠

فهذا كلام أجمل فيه ما فصل في سورة الأعلى وسورة الدهر، وهو الإعراض عنهم، وفصل فيه ما ترك مجملا في تينك السورتين، وهو حفظ القرآن. والآن نبينه بعون الله تعالى فإنه من مهمات المسائل.

(١٥)

في حفظ القرآن وجمعه في عهد النبي بوحي من الله وأن الإمامية موافقون لنا في ذلك

اعلم أن الله تعالى وعد حفظ القرآن مرارا إجمالا وتفصيلا، فقـال تعالى: ﴿وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا مـن خلفـه﴾ [سورة حم السجدة/٤١-٤٢]، أي إنه مصون عن الزيادة. وقال تعـالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ [سورة الحجر/٩]. وهذا قول في غاية الصراحة بنفي النقصان والتغير مع الدلالة على نفي الزيادة أيضاً. فإن كل واحد من هذه الثلاث يخالف حفظ الكلام، وهذا أمر ظاهر.

وأما ما اشتهر من أن الإمامية يقولون بـذهاب بعـض القـرآن فخلاف تصريح علمائهم كالسيد المرتضى، وشيخ الطائفة محمد بن الحسن الطوسي، وأبي على الطبرسي صاحب مجمع البيان، ومحمد بن علـي بـن بابويه القمى الذي قال:

"اعتقادنا أن القرآن الذي أنزله الله على نبيه هو ما بين الدفتين وما في أيدي الناس، ليس بأكثر من ذلك. ومن نسب إلينا أنا نقول إنه أكثر من ذلك فهو كاذب".

وأما رواياتهم فمثل رواياتنا لا يعتمد عليها لضعفها.

قال السيد المرتضى:

"إن من خالف في ذلك من الإمامية والحشوية لا يعتد بخلافهـم، فإن الخلاف في ذلك مضاف إلى قوم من أصحاب الحديث نقلـوا

أخباراً ضعيفة ظنوا صحتها، لا يرجع بمثلها عن المعلوم المقطوع على صحته".

وللسيد المرتضى دلائل أخر تركناها. فإنا بسطنا الكلام في كتابنا ''تاريخ القرآن'' ١٠٧. وإنما نذكر ههنا ما يختص بهذه السورة.

فلا يخفى عليك أن قوله تعالى: ﴿إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه﴾ [سورة القيامة/١٧-١٩] يحتوي على ثلاثة أمور:

الأول: أن القرآن يجمع في عهد النبي ﷺ ويقرأ عليه بنسق واحد. فإنه لو أنجز هذا الوعد بعد عهد النبي لم يأمره باتباعه، وذلك قوله: ﴿فإذا قرأناه فاتبع قرآنه﴾.

والثاني: أن النبي مأمور بالقراءة حسب هذه القراءة الثانية التي تكون بعد الجمع، وليس للنبي أن يلقى عليه شئ من الوحي ولا يبلغه الأمة عقلا، ولما أمره الله تعالى في قوله: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته﴾ [سورة المائدة/٦٧]، وقوله تعالى: (ما أنزل إليك) عام ولا يخصه العقل. فكل ما أنزل إلى الرسول من أمر الرسالة لابد أن يبلغه الأمة، ونظم القرآن وصورته منه، فكيف يترك تبليغه وهو مما أنزل إليه. فلا شك في أن النبي عليه السلام علم الأمة قراءة السورة بنسق آياتها.

والثالث: أن بعد هذا الجمع والترتيب بين الله ما شاء بيانه من التعميم، والتخصيص، والتكميل، والتخفيف.

وقد علمنا وقوع هذه الأمور الثلاث. فإن النبي كان يقرأ عليهم

---

١٠٧ هو من مؤلفاته التي لم يتيسر له إتمامها ، وأما ما كان في مخطوطاته من هذا الكتاب فهو أيضا لم يطبع إلى الآن .

سورة القرآن كاملة، وهذا لا يكون إلا بعد أن قرئ عليه بنسق خاص فأخذوها منه، وكان يأمرهم بوضع الآيات بمحلها اللائق بها. ثم بعد ذلك إذا أنزلت عليه آيات مبينة ضمها بالقرآن.

فترى هذه المبينات ربما وضعت بجنب ما تبينه، وحيناً في آخر السورة إن كانت متعلقة بعمودها. وترى في أكثر هذه الآيات تصريحا بأنها بيان من الله تعالى، كقوله عز من قائل: ﴿كذلك يبين الله آياته للناس﴾ [سورة البقرة/١٨٧]. ثم عرض عليه جبريل الأمين عرضة أخيرة بعد تمام القرآن، كما جاء في الخبر الصحيح المتفق عليه. فأتاه القرآن بتمامه مرتب السور فكان مواقع السور فيه مثل مواقع الآيات مما ألقى عليه، وعلم الأمة كما تلقى من الروح الأمين. فليكفنا هذا القدر ههنا.

(١٦)

تفسير قوله تعالى

﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة﴾

اعلم أن قوله تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة﴾ [سورة القيامة/٢٢-٢٥]، تصوير لحالتي المصدقين والمكذبين. فوجوه يومئذ باسمة سروراً لما ينتظرون من رحمة الله، ووجوه (يومئذ) كالحة لما يخافون عذابه، كما قال في سورة عبس: ﴿وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة﴾ [سورة عبس/٣٨-٤١]. وكما بين أمرين للمكذبين: من البسور وسوء الظن، فكذلك بين للمصدقين أمرين: نضرة الوجوه والاستبشار بثواب الله. والثاني كالسبب للأول، فإن السرور والحزن

يظهران في لون الوجه، كما قال متمم بن نويرة:

ولوعة حزن تترك الوجه أسفعا ١٠٨

وهذا كثير.

فالنظر في الآية هو نظر من ينتظر من ربه رحمة ويرجو منه نعمة. ولا يغرنك كلمة "إلى". فإنها ربما لا تكون للجهة المكانية لا سيما إذا استعملت بالنسبة إلى الرب تعالى ألا ترى استعمالها في قوله تعالى: ﴿وتوبوا إلى الله﴾ [سورة التحريم/٨]، وقوله تعالى: ﴿ففروا إلى الله﴾ [سورة الذاريات/٥٠]، وقوله تعالى: ﴿وتبتل إليه تبتيلا﴾ [سورة المزمل/٨]، وقوله تعالى: ﴿وإلى ربك فارغب﴾ [سورة الانشراح/٨].

ثم إن المؤمن يعظم ربه فيجعل له المكان في السماء وهو مصيب في ذلك من وجه، فإن الله تعالى محيط بكل شئ. فربما يدعوه ويرفع نظره إلى السماء مناجيا له ومتوجها إليه، وشتان ما بين هذا النظر والرؤية. انظر كيف جاء في زبور ١٢٣:

" إليك رفعت عيني يا ساكناً في السماوات. هو ذا، كما أن عيون العبيد نحو أيدي سادهم وكما أن عيني الأمَة نحو يد سيدها، هكذا عيوننا نحو الرب إلهنا حتى يترحم علينا، ارحمنا يا رب ارحمنا ".

وأما تمسك الإمام أبي الحسن الأشعري بهذه الآية، فكان رحمه الله مبتلى بالمعتزلة، فكان يجادلهم على طريقهم ويفحمهم.

ألا ترى كيف اضطرهم إلى القول بأن "إلى" هو واحد آلاء

---

١٠٨ صدره:

فقلت لها: طول الأسى إذ سألتني

المفضليات: ٢٦٨ ، وجمهرة أشعار العرب: ٧٥٣ .

وضعفه ظاهر. ولكن الحق الأبلج أن الاستدلال على رؤية الله تعالى بقوله تعالى: ﴿إلى ربها ناظرة﴾، والجواب بأن "إلى" واحد آلاء كلاهما من الوهم، والجهل بلغة العرب، وشئون الكلام. فالآلاء ليست بمعنى النعم كما بيناه في كتاب ''مفردات القرآن'' ١٠٩. ثم مع الإيمان بالتنزيه ما لنا وللخوض في ذات الله. أليس ذلك من علامات ذهاب الدين ؟ فأحذرك منه. وتفصيل المسئلة في كتاب عيون العقائد ١١٠.

(١٧)

الإشارة من مجئ ''يفعل'' مجهولا

في قوله تعالى: ﴿تظن أن يفعل بها فاقرة﴾ مجئ ''يفعل'' بصيغة المجهول يشير إلى أن العذاب إنما يخاف من جهة أنفسنا، كما أن النعم تنتظر من الله. وصرح بذلك في قوله تعالى: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾ [سورة الشورى/٣٠]. وعلى هذا الأسلوب قوله تعالى: ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾[سورة الفاتحة/٧]، فلم ينسب الغضب إلى نفسه كما نسب الإنعام في قوله: ﴿أنعمت عليهم﴾ [سورة الفاتحة/٧]. وهذا للتنبيه على رحمته العامة. ولكن إذا أراد عموم عدله ونفاذ سنته نسب كل ما يقع إلى ذاته المقدسة. والأصل في ذلك أن المعبود محبوب عند كل عابد إلا من كان في أسفل درجات الإنسانية، فلا يرجون منه إلا الحسنى، ويدعونه بأسماء تدل على الرحمة. وشرح ذلك في تفسيرآية: (بسم

---

١٠٩ نشرته الدائرة الحميدية سنة ١٣٩٥هـ ودار الغرب الإسلامي ، بيروت ٢٠٠٣هـ

١١٠ وهو مطبوع ، نشرته الدائرة الحميدية سنة ١٣٩٥هـ

الله الرحمن الرحيم).

وإذا قابلت هذه الآية بالتي سبقتها في صفة المؤمنين، بدا لك أن المؤمنين منتظرون قربة من الله، والمكذبين قد يئسوا من رضوانه وعلموا بأنهم مبعدون، كما قال تعالى: ﴿كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾ [سورة التطفيف/١٥].

(١٨)

تفسير قوله تعالى: ﴿كلا إذا بلغت التراقي﴾

قراءة الفاصلة بالوقف وحذف الياء

في قوله تعالى: ﴿إذا بلغت التراقي﴾ [سورة القيامة/٢٦] الضمير للنفس كما جاء في سورة الواقعة: ﴿فلولا إذا بلغت الحلقوم﴾ [سورة الواقعة/٨٣] و إنما لم يذكرها لعلمهم بها وتعودهم بهذا الحذف، كما قال الحاتم الطائي:

أماوي ما يغني الثراء عن الفتى
إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر ١١١

وهذا الحذف من مثل ما جاء في القرآن: ﴿ما ترك على ظهرها من دابة﴾ [سورة فاطر/٤٥].

ثم في الآية أمر آخر من جهة القراءة، وذلك أنه لا خلاف بين العلماء في أن النبي ﷺ كان يقف على آخر الآيات، أي يقطعها. فإن الفواصل إنما جاءت متشابهة لأمر صوتي، وأما وصل المعنى وفصله فأمر

---

١١١ شعراء النصرانية: ١٠٩ .

آخر، كما ترى في الأشعار و الأسجاع.

وقد علمنا من كلام العرب أنهم ربما يحذفون الياء من آخر الكلمة لا سيما الساكنة، كما ترى في قوله تعالى: ﴿لكم دينكم ولي دين﴾ [سورة الكافرون/٦]، وأصله "ديني". وذلك كثير في القرآن في الفواصل.، وجاء في غير المقاطع أيضاً في أشعار العرب. قالت الخنساء:

وتعذرت أفق البلاد   فما بها وشل لمائح
تذري السوافي على السوا   م و أجديت المسارح ١١٢

فحذفت الياء من آخر السوامي، و هو في حالة النصب مثل التراقي.

وقالت الخنساء:

فيا عين بكى لامرئ طار ذكره   له تبك عين الراكضات السوابح ١١٣

حذفت ياء "تبكي". وأنشد سيبويه في كتابه:

فطرت بمنصلي في يعملات   دوامي الأيد يخبطن السريحا ١١٤

---

١١٢ أنيس الجلساء في ملخص شرح ديوان الخنساء ص:١٤ المطبعة الكاثو ليكية بيروت سنة ١٨٩٥

في الأصل "المانح" مكان "لمائح". السوافي جمع السافياء: الغبار. والضمير في "تذري" لأفق البلاد ، وثانيثها لتانيث المضاف إليه. والسوافي للغبار. جاء في شعر مالك بن ريب التميمي:

بأنكما خلفتماني بقفرة   يهيل علي الريح فيها السوافيا

جمهرة أشعار العرب ص: ٧٦٣. وأما السوافي للريح فتجيء أيضا ، وحينئذ السوافي في حالة الرفع (من إفادات المؤلف رحمه الله) .

١١٣ أنيس الجلساء: ٢٠ .

١١٤ كتاب سيبويه الجزء الثاني ص: ٢٩١ الطبعة الأول بالمطبعة الكبرى الأميرية

فحذفت الياء من آخر الأيدي.

وإذ قد شاع في كلامهم حذف الياء الساكنة، و الياء في "التراقي" على تقدير الوقف ساكنة فلا يبعد أن تحذف الياء ثم تسكن القاف كما رأيت في مثل: ﴿ولي دين﴾ [سورة الكافرون/٦]، و ﴿فبشر عباد﴾ [سورة الزمر/١٧]، و﴿بل لما يذوقوا عذاب﴾ [سورة ص/٨].

(١٩)

تفسير قوله تعالى: ﴿قيل من راق﴾

(قيل من راق) حكاية عن شدة الأمر حين لا يلتفت إلى الذي قال، كأن هذا القول بنفسه أذهل عن ذكر القائل وكأن كلهم شريك في هذا القول، فالمجهول ههنا أبلغ. و"من" قبل النكرة تجئ لشدة الطلب أو عند غلبة اليأس. قال طرفة:

إذا القوم قالوا من فتى؟ خلت أنني عنيت، فلم أكسل و لم اتبلد١١٥

وقالت الخنساء:

يعطي الجزيل ولا يلحي الخليل ولا يخبي السبيل إذا ما قيل من هاد١١٦

في البيتين سؤال عند شدة الحاجة، ولكن في الثاني طرفا من اليأس. وربما ينتهي اليأس إلى الإنكار كما هو العادة في الاستفهام في جميع الألسنة المشهورة. ومنه قوله تعالى: ﴿من إله غير الله يأتيكم بضياء﴾ [سورة

بيولاق مصر سنة ١٣١٧هـ. في الأصل: "وطرت" مكان "فطرت".

١١٥ جمهرة أشعار العرب ص١/٤٦ .

١١٦ أنيس الجلساء ص: ٢٧. في الأصل "يلحى الجليل" ولكن الصواب عند المولف: "الخليل".

القصص/٧].

والاستفهام للإنكار شائع، ولكني أردت الاستشهاد على مجئ النكرة بعد "من"، وكشف معناها في هذا التركيب الخاص، فإن الآية محتملة لوجهين ولكن المآل واحد.

الأول: إنه إذا جاءت سكرة الموت وحشرجت النفس وقالت العواد اضطرابا، كما أن الغريق يتشبث بالحشيش، ألا راق فيداويه؟

والثاني: إنهم قالوا قد حم الأمر وانقطع العمر، فأي راق يشفيه؟ وهذا لشدة يأسهم. وحينئذ أيقن المحتضر أنهم أسلموه و ودعوه وعلم أنه الفراق. والعرب قد نطقت بهذا المعنى. قالت الخنساء:

لكن سهام المنايا من يصبن له لم يشفه طب ذي طب ولا راق١١٧

وقال عدى بن زيد:

أو تكن وجهة فتلك سبيل الناس لا تمنع الحتوف الرواقي١١٨

فوضعت المعنيين بين يديك فخذ بأيهما شئت، ولا حرج إذا كان المآل واحدا. وأما أنا فأرى الوجه الثاني أحسن لقربه من نظام الكلام كما علمت وستعلم.

(٢٠)

تفسير قوله تعالى: ﴿والتفت الساق بالساق﴾

معنى (والتفت الساق بالساق) أن لا يقدر المرء على المشي، ويكون هذا من شدة الضعف. فإنه إذا مات تبين أن قد التفت ساقاه بعد أن كان جوالا، كما قال دريد بن الصمة:

---

١١٧ المصدر السابق ص: ١٠٢ .

١١٨ ديوانه: ٤٥٤ .

فإن يك عبد الله خلى مكانه   فما كان وقافا ولا طائش اليد

كميش الإزار خارج نصف ساقه   صبور على الضراء طلاع أنجد ١١٩

وتصوير الضعف بالتفاف الساق أمر ظاهر. وجاء في كتب الأنبياء. فمعنى الكلام أنه بعد ما يئس منه الطبيب وودعه القريب وخانه أطوع أعضائه، فكيف يكون مآله، وهو مسوق إلى ربه قليل الأزر كثير الوزر.

والساق بمعنى شدة الأمر قول من لا يعرف من علم اللسان غير اسمه، فلا يميز بين دلالة المجموع ودلالة الأجزاء. الكشف عن الساق إنما يدل بمجموعه على الجد والتشمير، والكشف هو الكشف، والساق هي الساق.

ووهم الرواة فيما رووا عن ابن عباس ﷺ: أنه آخر يوم من الدنيا وأول يوم من الأيام الآخرة.١٢٠. فإنه لو صح فهو بيان الواقعة وليس بتفسير للساق

(٢١)

بيان ربط قوله تعالى:﴿إلى ربك يومئذ المساق﴾

بعد ما علمت المراد من التفاف الساق بالساق، تبين لك حسن موقع المساق، فإنه يخبرك عن شناعة غفلته عن التهيؤ لذلك المساق. وقد انتهى انهماكه في الدنيا إلى ما ترى من انقطاع سعيه ويبس ساقه، فكيف يكون مسيره إلى ربه؟

وهذا الكلام ينبهك إلى ما يتلوه كاشفا عن عدمه وسوء فقره. فإنه

---

١١٩ من قصيدة له فى رثاء أخيه عبد الله. انظر الأصمعيات: ١٠٨، وجمهرة أشعار العرب: ٦٠١ ، وشرح الحماسة للمرزوقى: ٨١٨ .

١٢٠ انظر الطبري ٢٩: ١٩٦ .

لو عمل صالحا وكان صدق وصلى لرفع بهما، فكانتا له مثل جناحين. قال الله تعالى: ﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾ [سورة الفاطر/١٠].

وهذا التأويل الذي هو ظاهر بنفسه أيضاً مناسب لما جاء بعد ذلك من قوله تعالى: ﴿ثم ذهب إلى أهله يتمطى﴾ [سورة القيامة/٣٣]. فهذا يقابل حاله حين ذهب عنه التمطى وصار ملقى على نعشه ملفوفا في كفنه. وقد ذكر بأسلوب المقابلة حالة سوق الإنسان إلى ربه ومسيره في سفره الذي يشق على الأنفس في سورة الانشقاق، فانظر هناك تجد مزيد بيان لهذا التأويل.

(٢٢)

موقع الصلاة في الدين

لا نرى الحاجة إلى شرح ما بقى من الآيات، فإني أرجو أنك الآن على طريق جدد، غير أنا نشير إلى أهمية الصلاة إشارة. وبسطنا الكلام عليه في كتاب أصول الشرائع ١٢١.

فاعلم أن الصلاة والزكاة أول الشريعة، وبهما يتحقق الإيمان. وفي القرآن آيات كثيرة تدل على ذلك. وهكذا قال المسيح ﷺ مصرحا حين سئل عن أول الشرائع.

ومن قال إن مجرد الإيمان يكفي فبئس ما فهم من الإيمان. أين الإيمان المجرد عن العمل ؟ انظر تفسير قوله تعالى: ﴿يتساءلون عن المجرمين ما

---

١٢١ هو من أهم كتبه ، قد ذكر فيه أصول الشرائع وعلاقتها-بالإيمان وأصل العبودية والتقرب إلى الله ولكن لم يتيسر له إتمامه. وأما ما كان منه في مخطوطاته فهو أيضا إلى الآن غير مطبوع .

سلككم في سقر ؟ قالوا لم نك من المصلين و لم نك نطعم المسكين وكنا نخوض مع الخائضين وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾ [سورة المدثر/٤٠-٤٨]، تجد هناك ما يكشف عن رفيع منزلة الصلاة. وكذلك انظر تفسير قوله تعالى: ﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين﴾ [سورة الزخرف/٣٦]، وقوله تعالى: ﴿أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً﴾ [سورة مريم/٥٩]، وآيات أخر. فقد أتبع ترك الصلاة الغي، والتكذيب، والحرمان من الشفاعة.

وبين لنا الله تعالى أن الصلاة تشق إلا على المؤمنين حقا حيث قال: ﴿وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون﴾ [سورة البقرة/٤٥-٤٦].

هذا، وتجد بعض البسط في تفسير سورة الفاتحة والبقرة وغيرهما.

(٢٣)

ربط السورة بالتي بعدها

قد علمت ربط هذه السورة بالتي قبلها مما مر في الفصل الأول، وعلمت أن الكلام يجري من غاية الشدة والتصريح إلى حد وسط، ويبين الدليل ويرفع الشبهة مع بقية التوبيخ والزجر. ولكن السورتين تخاطبان المنكرين. ثم في سورة الدهر ترى الالتفات إلى المؤمنين، كأن الخطيب قد فرغ من الكافرين فأعرض عنهم.

مع أن عمود هذه السور الثلاث واحد، فوجه الكلام فيهن من الشدة إلى اللين، ومن الزجر والنهر إلى الإعراض والإمهال، لكي يتفكروا و يرجعوا إلى أنفسهم.

هذا، ويتضح لك ربط هذه السور بعضها ببعض كل الاتضاح بعد ما رأيت تفسير كلهن. ذلك، والله تعالى أعلم وعلمه أحكم.

تفسير سورة القيامة

فهرس مطالب الفصول